مفهوم الاستشراق ونشأته:

يطلق لفظ الاستشراق على طلب معرفة ودراسة اللغات والآداب الشرقية، ويطلق لفظ المستشرق على الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته، وعليه فالاستشراق دراسة يقوم بها غير الشرقيين لتراث الشرق، هذا من حيث المفهوم الواسع.

والذي يعنينا ـ كما يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق[1] ـ هو «المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي، عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين المعنيين».

وقد حظي الإسلام واللغة العربية باهتمام المستشرقين الذين أولوا هذين الموضوعين عنايتهم أيما عناية، وشملوهما باهتمام دون غيرهما من سائر الموضوعات، وهذا مما يلفت النظر ـ في المقدمة ـ إلى معرفة أسباب هذه العناية ـ كما سيأتي ـ وحسبنا هنا أن نذكر قول «جون تاكلي»: يجب أن نستخدم كتابهم ـ أي القرآن الكريم ـ وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، لنقضي عليه تماماً، يجب أن نُرِيَ هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً! ويقول «جب» إن الاسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء[2]!.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ١٨

(٢) التبشير والاستعمار: ٤٠ نقلاً عن المرجعين الأصليين.

Scanned with CamScanner

ولخص «بلغراف» عداءهم للقرآن في كلمته المشهورة: متى توارى القرآن، ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه(١).

ولقد قدر للقرآن الكريم أن يحتضن الإسلام واللغة العربية، كما قدر للحديث النبوي ذلك، ومن ثم أصبحا أغنى المواضيع عند المستشرقين على الإطلاق، واستأثرا باهتمامهم، فتوفروا عليهما، وبحثوا في كل ما قدروا عليه من علومهما، ودارت حولهما بحوثهم الأكاديمية بصورة تلفت النظر، وتسترعي الانتباه، وتستوقف الباحث المتأمل، ولا نكون غالين ولا متزيدين إذا قلنا: إن القرآن والسنة هما المحور الذي تدور حوله الدراسات الاستشراقية.

يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق(٢): «ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن الغرب النصراني يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فينا الكنسي في عام ١٣١٢ م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية(٣)، ولكن الإشارة هنا إلى «الاستشراق الكنسي» تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ، فضلا عن أن هناك باحثين أوربيين لا يعتمدون التاريخ المشار إليه بداية للاستشراق، ولذلك تتجه المحاولات في هذا الصدد لا إلى تحديد سنة معينة لبداية الاستشراق، وإنما إلى تحديد فترة زمنية معينة على وجه التقريب، يمكن أن تعد بداية للاستشراق، وليس هناك شك في أن الانتشار السريع للإسلام في المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصراني إلى هذا الدين، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته.. وعلى الرغم من أن الاستشراق يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام مضت، فإن مفهوم مستشرق لم يظهر في أوربا إلا في نهاية القرن الثامن عشر.. وأدرج مفهوم الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨. وعلى أية حال فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان

Scanned with CamScanner

يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين: الإسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوربيين بتعاليم الإسلام وعاداته، ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى والشرق الإسلامي على الصعيدين: الديني والأيدلوجي.

وقد نشأت الصلة بين الغرب خاصة والمسلمين عامة ـ كما يقول الدكتور عجيل النشمي[1] ـ منذ أن كان المسلمون في أسبانيا، وكانت أوثق الصلات بالمسلمين من فرنسا وإيطاليا وانجلترا، حيث إن فرنسا عرفت المسلمين منذ أن اجتاح عبد الرحمن الغافقي بجيوشه جبال البرانس، واستولى على مدن كثيرة، إلى أن كانت موقعة بواتييه سنة ٧٣٢.

وكانت هناك صلة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ٨٠٩ ومراسلاته وهداياه مع الإمبراطور شارلمان ٨١٤ كان لها دور في توثيق الصلات، ثم جاءت مرحلة الحروب الصليبية!

وهناك دوافع الحروب الصليبية التي يطول الحديث فيها، وكذلك الظواهر التي تتسم بها بحوث المستشرقين، فندها المرحوم الدكتور مصطفى السباعي، فليرجع إليها من شاء[2].

وسارت فرنسا خطوات في احتلال شمال أفريقيا، وحملة نابليون على مصر، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وكل ذلك أثمر نتائج متعددة متنوعة حضارية وثقافية وفكرية وعقائدية، ومن ثم كانت مدارس للدراسات الشرقية ومعاهد وجامعات ومجلات.

ومعلوم أن إيطاليا أعرق دول الغرب اتصالاً بالمسلمين وحضارتهم اتصالاً قوياً، ومن ثم عنيت جامعة بولونيا ١٠٧٦ بعلوم العرب، وجامعة نابولي ١٢٢٤ بثقافتهم، وجامعة روما ١٢٤٨ بالآثار واللغة والآداب العربية والألسنة السامية،

---

(١) المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي: ٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر: السنة ومكانتها: ١٨٧ ـ ١٨٩.

Scanned with CamScanner

وجامعة فلورنسا ١٣٢١ باللغات الشرقية، والجامعة الغريغورية ١٥٥٣ بالاهوت، والحق والقانون الشرقي والدراسات الإسلامية[١] . . وأصبح الرهبان يشكلون طلائع الاستشراق بصفة عامة.

وأما إنجلترا فقد تهيأ للمستشرقين فيها ما لم يتهيأ لغيرهم، حيث امتدت الاتصالات العلمية والاقتصادية، ثم الاستعمارية في الأندلس، ثم الهند والعراق ومصر وفلسطين، فكانت سبيلا للاتصالات الثقافية والاحتكاك المباشر بالمسلمين وعلومهم[٢]. ومن ثم نشأت حركة استشراقية واسعة، تتمثل في إنشاء كراسي للعربية والدراسات الشرقية في جامعاتها، مثل جامعة إكسفورد ١١٦٧ وجامعة كمبريدج ١٢٥٧ وجامعة لندن ١٨٢٨ وجامعة درهام ١٨٣٨ وجامعة فكتوريا ١٨٨٠ وجامعة ليدز ١٨٨٤ وجامعة ويلز ١٨٩٣ وجامعة ليفربول ١٩٠٣ وجامعة بريستول ١٩٠٩، كما أنشأت المكتبات والمجلات الشرقية المتخصصة.

وهكذا كانت نشأة الاستشراق.

مراحل كتابة المستشرقين:

وأما عن مراحل كتابة المستشرقين فهي ترجع في عمومها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الطلائع.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد سقوط غرناطة.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية.

ويطول بنا الحديث لو حاولنا ذكر معالم كل مرحلة[٣].

الغارة على المخطوطات والكتب العربية:

وبحلول القرن الثامن عشر بدأ الغرب في استعمار العالم الإسلامي،

---

(١) انظر: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي: ٧ ــ ٨ والمستشرقون للعقيقي: ١: ٣٤٧ ط ثالثة دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

(٢) انظر: المستشرقون للعقيقي: ٣: ١٠٤٤ ــ ١٠٨٠.

(٣) انظر: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي: ١٠ وما بعدها.

Scanned with CamScanner

شبهات حول مفهوم السنّة وتدوينها

تمهيد:

أثار المستشرقون شبهات حول مفهوم السنة والحديث، تدعونا إلى بيان هذه الشبهات ودحض ما ذهبوا إليه، ومن ثم كان لا بد في المقدمة من بيان المفهوم لغة واصطلاحاً.

مفهوم السنة:

يطلق لفظ السنة لغة على الطريقة والسيرة حسنة كانت أو سيئة[1] . . وخصها بعضهم بالطريقة الحسنة . . قال الأزهري: والسنة: الطريقة المستقيمة المحمودة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة[2]. وقال الخطابي: إن السنة في اللغة للطريقة المحمودة خاصة[3].

قلت: الأول راجح لغة والثاني مرجوح، ففي الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال:

«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها،

---

(١) لسان العرب، والقاموس المحيط، والصحاح، والمعجم الوسيط (سنن) وكشاف اصطلاحات الفنون: ٧٠٣.

(٢) تهذيب اللغة: ٤: ٢٩٨.

(٣) إرشاد الفحول: ٣٣.

Scanned with CamScanner

ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

وفي رواية للشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)[2].

قال ابن حجر: (سنن) بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها وقال المهلب: بالفتح أولى، لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر، وهو الطريق[3].

وفي الاصطلاح يختلف معناها حسب اختلاف مناهج العلماء.. حيث اصطبغت في الإسلام صبغة أكسبتها معاني، استمد كل فريق من علماء الإسلام المدلول الخاص به من تلك الصبغة، إذ إنها من الكلمات التي خصصها المفهوم الإسلامي عن معناها اللغوي المطلق[4]..

فقد استعملت بمعنى تعاليم الشريعة الإسلامية، وعلى هذا المعنى تشمل كافة التعاليم الواردة في القرآن والحديث، أو المستنبطة منهما مما هو حجة، ويحمل على هذا المعنى ما جاء من الأخبار والآثار التي تحث على التزام تعاليم الشريعة، وعدم التفريط فيها، وكذلك الأحاديث التي تبين أحكاماً معينة لحوادث وقعت، أو تظهر الأمر الذي كان عليه عمل النبي ﷺ وأصحابه ـ عند مخالفة

---

(١) مسلم: ١٢، الزكاة ٦٩ (١٠١٧) وفيه قصة، والدارمي: ١: ١٣٠، وأحمد: ٤: ٣٥٧، ٣٥٨ ـ ٣٦٢، والنسائي: ٥: ٧٥، ٧٦، وابن ماجه المقدمة (٢٠٣)، والترمذي: ٤٢ ـ العلم (٢٦٧٥) بلفظ (من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه، غير منقوص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه، غير منقوص من أوزارهم شيئاً).

(٢) البخاري: ٩٦، الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم ٤٧، العلم ٦ (٢٦٦٩)، وانظر: منحة المعبود: ١: ٤٠ ـ ٤١.

(٣) فتح الباري: ١٣: ٣٠١.

(٤) الوضع في الحديث ١: ٣١ وما بعدها بتصرف.

Scanned with CamScanner

ذلك ـ فكلها تستعمل السنة بمعنى تعاليم الشريعة . . والأدلة على ذلك كثيرة[1].

وفي كثير من الأحاديث جاءت كلمة السنة في مقابلة القرآن أو معطوفة على كلمة الكتاب، والمقابلة والعطف يقتضيان المغايرة غالباً، فمن الطبيعي أن تحمل على معنى مستقل يغاير المعنى الأول ـ الذي هو تعاليم الشريعة ـ وقد فسر بالوحي غير المتلو، وغير المعجز الذي كان ينزل على رسول الله ﷺ، والذي عرف لدى العلماء بالحديث.

وهذا التفسير أخص من التفسير الأول . . ويمكن القول بأنه متى اجتمعا افترقا، وحيث يكتفى بذكر السنة تشمل الاثنين معاً، وقد جاءت الأحاديث بالمعنى الثاني كما جاءت بالمعنى الأول . .

بهذين المعنيين عرفت كلمة السنة في الرعيل الأول، وبهما اصطبغت الكلمة في المفهوم الإسلامي في عصر النبي ﷺ، وعصر الصحابة، والتابعين، ثم بدأت تأخذ مفهوماً أخص، حيث إن علماء التشريع الإسلامي بدأت نظراتهم تختلف في مدلول كلمة السنة تبعاً لاختلاف الموضوع الذي يبحث فيه كل فريق منهم . .

فهي عند المحدّثين ـ على ما ذهب إليه جمهورهم ـ: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وصفاته الخلقية والخلقية، وسيره ومغازيه، وبعض أخباره قبل البعثة، مثل تحنثه في غار حراء، وحسن سيرته، وأنه كان أمياً، وما إلى ذلك من صفات الخير وحسن الخلق[2].

وتعريفهم هذا مبني على عنايتهم بإثبات[3] وتصحيح كل ما يتصل بالنبي ﷺ من أقوال أو أفعال، أو تقريرات، وخلق وسيرة، وشمائل وأخبار، سواء أثبتت أحكاماً شرعية أولاً . . وهو مستمد من تفسير السلف للسنة بأنها آثار رسول الله ﷺ . .

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) الحديث والمحدثون: ١٠، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠: ١٨، وإرشاد الفحول: ٣٣، والسنة قبل التدوين: ١٦، والسنة ومكانتها في التشريع: ٥٩، والسنة النبوية ومكانتها عباس متولى حمادة: ٢٣.

(٣) الوضع في الحديث: ٣٧ بتصرف.

Scanned with CamScanner

وعند الأصوليين ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن من الأقوال والأفعال، وبعضهم يضيف التقرير، وبعضهم يضيف الترك، وغيرهم يضيف الهمّ والإشارة، ونحو ذلك، والأولى ترك ما ذكر، ما عدا الأقوال والأفعال، كما صنع البيضاوي في المنهاج، لأن كل ما ذكر مما سواهما فهو فعل على الراجح . . ومن ادعى أن شيئاً مما ذكر ليس فعلاً، وأنه حجة، فيلزمه ذكره في التعريف(١).

وتعريفهم هذا مبني على عنايتهم بالدليل، ومنه السنة التي أمرنا باتباعها.

وعند الفقهاء: الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب، بمعنى النافلة والمندوب . . وبعضهم خص ذلك بنوع من القربة يطلق على ما داوم عليه النبي ﷺ من التعبدات، كالرواتب وصوم الاثنين والخميس، دون ما لم يداوم عليه(٢) . .

وتعريفهم هذا مبني على عنايتهم بالحكم.

وعند علماء العقيدة والوعظ والإرشاد(٣): ما وافقت الكتاب والحديث، وإجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات، وتقابلها البدعة، ومن هنا استعمل الاصطلاح المشهور: «أهل السنة».

وتعريفهم هنا مبني على عنايتهم بالأعمال التعبدية وموافقتها للدليل، ورد ما خالف ذلك.

مفهوم الحديث:

أماالحديث فإنه يطلق لغة على الجديد والخبر . . ولا يختلف معناه عما سبق . . وما جاء من أقوال يبدو فيها اختلاف في الألفاظ فهو من قبيل اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات، وليس من قبيل الاختلاف في الحقيقة، كما يتوهمه الذين لا يمعنون النظر(٤).

---

(١) أفعال الرسول ﷺ: ٤ ــ ٧ بتصرف.

(٢) الحديث والمحدثون ١٠، وأفعال الرسول ﷺ: ٥ ــ ٦، والسنة قبل التدوين: ١٨.

(٣) الوضع في الحديث: ١: ٣٩ بتصرف.

(٤) توجيه النظر: ٢ ــ ٣.

Scanned with CamScanner

استقصاء المؤلفات العربية، والقديم منها خاصة، مع الإشارة إلى مكان النادر والمخطوط منها.

ذلك المستشرق، الذي كنا نتوهمه متسامياً على ما يرتكس فيه إخوانه علماء المشرقيات، ألف كتاباً آخر في «تاريخ الشعوب الإسلامية» ترجمه أستاذان من بيروت، هما الدكتور نبيه أمين فارس، والأستاذ منير البعلبكي، في خمسة أجزاء، وطبع ببيروت، وجزؤه الأول طبع سنة ١٩٤٨ م.

هذا الرجل الذي كنا نظنه عاقلاً! يقول في الجزء الأول من كتابه[1]، حين يتحدث عن بلاد العرب قبل الإسلام، وعن أحوالهم الاجتماعية في شمالي الجزيرة، يقول بالحرف الواحد:

«والبدوي كائن فردي النزعة، مفرط الأنانية قبل كل شيء، ولا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام، أن يقول في صلاته: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً»!

هكذا يقول هذا الرجل الواسع الاطلاع على الكتب العربية، والمؤلفات الإسلامية! غير الجاهل بكلام العرب، ولا الغافل عن معنى ما يقرأ، والحديث أمامه في كتب السنة كاملاً، ينقل منه حرفاً واحداً، ويدع ما قبله وما بعده! هذا الرجل الذي أظهرت كلمته أن الإحن والعصبية الصليبية تملأ صدره، وتغطي على بصره وعقله!.

حادث فردي، من بدوي جاهل، لم يمر دون أن ينكر عليه الناس، ودون أن يعلمه المعلم الرفيق، ﷺ -: يجعله هذا المفتري الكذاب، قاعدة عامة لخلق أهل البادية! يجعل الحادثة الجزئية قاعدة كلية، وهذا أعجب أنواع الاستنباط فيما رأينا وعلمنا!.

ولست أدري لماذا لم يستنبط أيضاً من هذه الحادثة الفردية قاعدة كلية أخرى: أن من خلق أهل البادية إذا دخلوا مسجداً، أو حضروا جمعاً عظيماً من الناس أن يبادروا إلى البول في المسجد، أو في حضرة الناس! حتى يكون هذا المستشرق منطقياً مع نفسه، والأعرابي صاحب الحادثة صنع الأمرين!.

---

(١) الترجمة العربية: ١٦.

Scanned with CamScanner

ولم يكتف هذا المستشرق بما أبدى من ذكاء وأمانة! فافترى على الإسلام الكذب الصراح، حين زعم أنه لا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام أن يدعو بهذا في صلاته! أهذا صحيح أم كذب؟!

وإن أعجب فعجب أن يدع الدكتور عمر فروخ التعليق على كلام هذا المستشرق الكذاب! وأن يقتصر الأستاذان معربا الكتاب على التعليق ببيان موضع الحديث في بعض كتب السنة، نقلا عن فهارس المستشرقين!

نعم، فقد ذكر المترجمان، في مقدمة الترجمة[1] أنه إذا كان في الكتاب بضعة آراء خاصة بالمؤلف تتنافى أحياناً مع وجهة النظر الإسلامية، فقد عهدنا بالتعليق إلى زميلنا الدكتور عمر فروخ، أستاذ الفلسفة في كلية المقاصد الإسلامية في بيروت، وعضو المجمع العلمي بدمشق، وأنهما ليسا في حاجة إلى القول أن هذا لا يفيد بالضرورة موافقتنا المؤلف على آرائه الباقية جميعاً، لأننا لم نستهدف بالتعليق إلا تلك الآراء التي تتصل بحياة الرسول وتعاليم الإسلام.

أفلم يقرأ الأستاذان المترجمان هذا الحديث في مصادره التي أشارا إليها حين الترجمة والتعليق؟ إذ أكاد أثق أنهما قرآه، حين ترجما نص الدعاء ترجمة صحيحة، وما أظن أنهما كانا حافظين لنصه في الذاكرة من قبل، ولو كان لكان أبعد لهما من العذر!

أو لم يعرفا ولم يعرف الدكتور عمر فروخ، من بدائه دينهم، أنه لا يعقل عقلاً أن بعض الأحاديث لا تزال تسمح للعربي الداخل في الإسلام بهذا الدعاء؟!

□□□

(١) المقدمة: ٧.

Scanned with CamScanner

يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها!

تلك نبذة مختصرة عن الاستشراق والمستشرقين، تضع يدنا على معاول الهدم التي تنطق بها أعمالهم التي حاولنا في هذه العجالة كشفها، رجاء أن تكون في ذلك ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين!

دوافع الإحن والعصبية:

وإليك هذا المثال لدوافع الإحن والعصبية، فقد روى أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: دخل أعرابي المسجد، فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم! ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً! فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «لقد تحجرت واسعاً».

ثم لم يلبث أن بال في المسجد! فأسرع الناس إليه، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين، أهريقوا عليه دلواً من ماء، أو سجلاً من ماء»[1].

وهو حديث واضح المعنى في وصف هذا الأعرابي البادي الجافي ـ كما يقول الشيخ أحمد شاكر[2] ـ جاء من البادية بجفائه وجهله، فصنع ما يصنع الأحمق الجاهل، حتى علمه معلم الخير ﷺ، لا يرتاب في معرفة جفاء الرجل وجهله من قرأ الحديث أو سمعه، أيا كان القارىء أو السامع عالماً أو جاهلاً وذكياً أو غبياً، عربياً أو أعجمياً.

أفليس عجباً ـ بعد هذا ـ أن يغلب الهوى وبغض الإسلام، رجلاً مستشرقاً، كنا نظن أنه من أبعد المستشرقين عن أهواء المبشرين، ودناءات المحرفين! هو المستشرق بروكلمان، صاحب كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي حاول فيه

---

(١) أحمد: ١٢: ٢٤٤ ـ ٢٤٧ (٧٢٥٤) تحقيق أحمد شاكر، وأبو داود الطهارة (٣٧٦) عون المعبود، والترمذي الطهارة (١٤٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أحمد: ١٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٧ بتصرف.

Scanned with CamScanner

هذه هي أهم معاول الهدم التي تدفعنا إلى أن نرتاب في دراسات المستشرقين، ونتوجس منها خيفة!.

إنكار نزول القرآن من عند الله:

وهم ينكرون أن يكون القرآن منزلاً من عند الله عز وجل، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية، مما يستحيل صدوره عن النبي الأمي محمد ﷺ، وتبطل دعواهم ببشرية القرآن الكريم، وزعمهم بأنه ليس أكثر من تعبير عن انطباع البيئة العربية في نفس الرسول!.

حين تبطل دعواهم التافهة هذه، يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول ﷺ من أنه استمد ذلك من أناس، ويتخبطون في ذلك تخبطاً عجيباً!.

وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف وتكشف إلا في هذا العصر، يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي ﷺ، ويقعون في تخبط أشد غرابة مما سبق!.

وعلى الرغم من أن بعض تلاميذ المستشرقين من العرب والمسلمين يقولون عن القرآن الكريم كلاماً يدل على اعتقادهم أنه فكر تأثر ببيئة عربية معينة، فإن هناك عدداً من علماء المسلمين المعاصرين قد أعدوا دراسات علمية وافية في دحض تلك المزاعم الباطلة، والافتراءات المتهافتة[1].

التشكيك في صحة رسالة النبي ﷺ:

والمعتدلون منهم في كتاباتهم، يشككون في صحة رسالة النبي ﷺ، لأنهم ينكرون أن يكون محمد نبياً، ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي، كأن الله لم يرسل نبياً قبله، حتى يصعب عليهم تفسير الوحي!.

ولما كانوا يهوداً أو نصارى ـ في معظمهم ـ يعترفون بأنبياء، كان إنكارهم

---

(١) انظر: في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين، والردود عليه في نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين، وفي النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد محمد الغمراوي.

Scanned with CamScanner

لنبوة خاتم النبيين تعتاً مبعثه التعصب الديني الذي يملأ نفوس اكثرهم كاحبار ورهبان وقسس ومبشرين[1].

جواب السؤال الرابع

إنكار كون الإسلام ديناً من عند الله:

ويتبع إنكارهم لنبوة الرسول ﷺ ونزول القرآن الكريم، إنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله، وإنما هو ـ في زعمهم ـ ملفق من اليهودية والمسيحية، وليس لهم في ذلك مستند يؤيده البحث العلمي البتة!.

ويلاحظ أن المستشرقين اليهود أمثال: «جولد تسيهر» و«شاخت» هم أشد حرصاً على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه!

أما المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى المتهافتة، إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به، وأخذه عنه، وإنما فيها مبادىء أخلاقية، زعموا أنها أثرت في الإسلام، ودخلت عليه منها، كأن المفروض في الرسالات الإلهية أن تتعارض مبادئها الأخلاقية، وكأن الذي أوحي من قبل هو غير الذي أوحي بعده، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!.

والظاهر أن المستشرقين اليهود أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية، ترمي إلى التشكيك في قيم الإسلام، بدعوى فضل اليهود عليه وكأن اليهودية مصدره الأول، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً، ثم دولة ثانياً!.

وحول ما يتعلق بالإسلام يدعي المستشرقون أن المجتمع الإسلامي في صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوي إلا في فترة قصيرة، هي الفترة الأولى، التي يطلقون عليها: عهد ابتدائية المجتمع الإسلامي، التي أوجدت نوعاً من التلازم بين الحياة وتعاليم الإسلام، ويزعمون أنه كلما تطور المجتمع ازدادت الفجوة، لأن الإسلام لا يوافق التطور!.

ومن هنا يسارعون إلى تقرير أن التخلف عن تعاليم الإسلام تمليه الضرورة الاجتماعية، تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة، التي لا يستطيع الإسلام ـ كما

Scanned with CamScanner

يزعمون ـ أن يكيفها في تعاليمه، وعلى هذا فإن تطبيق الإسلام في نظرهم، إنما يعني العزلة والتخلف، ويرون أن الحل هو في الخضوع لما يسمونه «قانون التطور» ولا يتم ذلك كما ينادون إلا بالسير وفق المثل الغربية والتفاعل معها!

التشكيك في صحة الحديث النبوي:

ويتذرع هؤلاء المستشرقون ـ أحياناً ـ بما دخل على الحديث من وضع ودس، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره، مستندين إلى قواعد بالغة الدقة في التثبت والتحري، مما لم يعهد عشر معشاره في التأكد من صحة الكتب المقدسة عندهم!

والذي حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم هذه ما رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروة فكرية وتشريعية مدهشة، وهم لا يعتقدون بنبوة خاتم النبيين ـ كما أسلفنا ـ فادعوا أن هذا لا يعقل أن يصدر كله عن النبي الأمي، بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، فالعقدة النفسية عندهم هي عدم تصديقهم بنبوة خاتم النبيين ﷺ، ومنها تنبعث كل تخبطاتهم ومفترياتهم وجهالاتهم!.

التشكيك في قيمة الفقه الإسلامي:

ومن ثم شكك المستشرقون في قيمة الفقه الإسلامي، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور، لقد أسقط في أيديهم حين اطلاعهم على عظمته، وهم لا يؤمنون بنبوة خاتم النبيين، ومن ثم فلم يجدوا بداً من الزعم بأن هذا الفقه العظيم مستمد من الفقه الروماني، أي أنه مستمد منهم، وقد بين علماؤنا تهافت هذه الدعوى، وأيد ذلك ما قرره مؤتمر القانون المقارن المنعقد بلاهاي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته، وليس متمداً من أي فقه آخر!

التشكيك في قدرة اللغة العربية:

وشككوا في قدرة لغتنا على مسايرة التطور العلمي، لنظل عالة على مصطلحاتهم التي تنادي بفضلهم وسلطانهم العلمي علينا، وشككوا كذلك في غنى

Scanned with CamScanner

الأدب العربي، وحاولوا إظهاره مجدباً فقيراً، لنتجه إلى آدابهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي، الذي يبغونه مع الاستعمار الفكري الذي يرتكبونه!.

ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية، والعلوم الإسلامية، أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، ثم يرمون كلهم بما يكتبونه إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية التي يعدونها نصرانية، لأن أمم الغرب تدين بها، ليخرجوا بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب، وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام، وما غايتهم في ذلك إلا تخاذل روحي، وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية[1]!

تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري: الى هنا بعض محمد

ويتذرعون لذلك بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة من حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري، وكان في حضارتهم كل النقائص، وإذا تحدثوا بشيء عن حسناتها ـ وقليلاً ما يفعلون ـ يذكرونها على مضض، مع انتقاص كبير!.

إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم:

وذلك ببث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم ومثل عليا، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته فيما بينهم، فيكونوا عبيداً لها، أو على الأقل تضعف روح المقاومة في نفوسهم!

أخطاء سببها الجهل بالعربية والبعد عن الحياة الإسلامية:

وقد تردى كثير من المستشرقين في أخطاء كان سببها جهلهم بأساليب اللغة العربية، وجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها، حيث يتصورونها كما

Scanned with CamScanner

والاستيلاء على ممتلكاته، واستباحة مقدساته وذخائره ونفائسه، فأخذ نفر من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون المجلات في عواصم الغرب، وطفقوا يغيرون على المخطوطات العربية في البلاد الإسلامية التي أصبحت نهباً مباحاً لهؤلاء الطامعين، بعد أن استعمرتها دولهم وقهرتها، وبشتى الطرق ومختلف الأساليب أخذوا يجمعون هذه المخطوطات وتلك النفائس والذخائر من تراثنا العربي والإسلامي، إما بشرائها من أصحابها الجهلة، أو بسرقتها من المكتبات العامة التي كانت حينذاك في غاية الفوضى، وأخذوا ينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم ومتاحفهم!.

وإذا بأعداد من نوادر المخطوطات تنقل إلى مكتبات أوربا ومتاحفها(١).

وإذا بنا نرى أنه قد بلغ عددها في أوائل القرن التاسع عشر (٢٥٠,٠٠٠) خمسين ومائتي ألف مجلد، وما زال هذا العدد في زيادة مطردة حتى يومنا هذا!.

عقد المؤتمرات:

ويعتمد المستشرقون ــ فيما يعتمدون ــ على عقد المؤتمرات العامة، من وقت لآخر، لتنظيم نشاطهم.

ويرجع تاريخ أول مؤتمر عقدوه إلى سنة ١٧٨٣ م وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم.

مرحلة جديدة:

ثم مر الاستشراق بمرحلة جديدة، ففي القرن الثامن عشر أنشىء كرسيان جديدان للغة العربية في جامعتي إكسفور وكمبردج، ثم اختتم هذا القرن بحملة نابلون على مصر وبلاد الشام، تلك الحملة التي صحبها عدد كبير من العلماء، كان أغلبهم من المستشرقين.

وفي القرن التاسع عشر ازدهر الاستشراق، لما حدث من تطور كبير في الدراسات العربية، وما نشره علماء حملة نابليون، وتخريج مدرسة «دي ساس»

---

(١) انظر: الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم: ١٤، والمستشرقون: ١ ــ ١١٣، وكتابنا الفهارس ومكانتها عند المحدّثين: ١٣ وما بعدها.

Scanned with CamScanner

الفرنسية عدداً كبيراً من المستشرقين الأوربيين، وإنشاء كراسي للغة العربية في كثير من جامعات أوربا، وتأسيس الجمعيات الآسيوية، وإصدار مجلاتها، وإتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين لزيارة بلاد الشام، فتوافدوا عليها من مختلف الجامعات والبلدان الأوربية.

وهكذا اقترن ازدهار الاستشراق بضعف الدولة العثمانية، وظهور أطماع الدول الأوربية في الاستحواذ على أملاكها وعلومها المتنوعة.

وفي هذه المرحلة عمد المستشرقون إلى تغيير أساليبهم، وحاولوا أن يظهروا بمظهر جديد، هو ما زعموه ـ كذباً وزوراً ـ من تحرير الاستشراق من الأغراض التبشيرية، والاتجاه به وجهة البحث العلمي البحت!

مواكبة الاستشراق للغزو الاستعماري:

وقد واكب الاستشراق الغزو الاستعماري، ومضيا معاً في طريق واحد، فإذا كان الغربيون قد غزوا البلاد الإسلامية تلك الغزوات الاستعمارية التي نعرفها، فإن المستشرقين منهم قد غزوا التراث الإسلامي، فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه، وألفوا فيه كثيراً من الكتب، وساعدوا على تحقيق كثير من المخطوطات التي نقلوها إلى مكتبات بلادهم، أو أخذوا صورها من مكتبات الشرق، أو استنسخوها على ذمة نشرها محققة، وقامت من أجل ذلك صناعة نشر التراث الإسلامي في عدد من العواصم والمدن الكبرى في أوربا.

وعلى الرغم مما يزعمه المستشرقون في هذه المرحلة من أن دراساتهم تقوم على أسس علمية وطيدة، فإن الكثيرين منهم ـ مع الأسف ـ لم يحيدوا عن الروح الصليبية التعصبية، وبخاصة الذين استعانت بهم دولهم لأغراض استعمارية، فكان هؤلاء يضعون الاتهام أولاً، ثم يبحثون عن الأدلة التي تقوي هذا الاتهام!

تسلل المستشرقين إلى الدوائر العلمية واستعانتهم ببعض نصارى العرب:

ومما زاد الطين بلة أن كثيراً من طلبة العلم المسلمين ولوا وجوههم شطر جامعات الغرب، وأخذوا يؤمونها للدراسة فيها، وقد تأثر الكثيرون بما كان يلقيه أساتذتهم من المستشرقين في أذهانهم!

Scanned with CamScanner

كما أن الغربيين استعانوا ببعض نصارى العرب في نشر أفكارهم وترويجها، وبث سمومهم ضد الإسلام والمسلمين!

هذا بالإضافة إلى أن بعض المستشرقين تسللوا إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية، بل إلى المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد!

دور الصهيونية في الاستشراق:

ولا ننسى دور الصهيونية التي دخلت ميدان الاستشراق لتحول دون اجتماع المسلمين في وحدة تقاوم اليهودية العالمية، وتواجه دولة اليهود الباغية (إسرائيل) وفي مقدمة هؤلاء: «جولد تسيهر» و«بندلي» و«جوزي» وغيرهم!

الغارة مستمرة:

وعلى الرغم من تحرر البلاد الإسلامية من ربقة الاستعمار، وجلاء المستعمرين عنها، وتطور علاقاتها بدول الغرب، فضلاً عما قام به أبناؤها من دراسات متعمقة في شتى المجالات أغنت أبناء وطنهم عن الكتابات الاستشراقية المغرضة التي ما فتىء البحث الموضوعي يكشف عما تنطوي عليه من التواء ومغالطات، ومن ثم أخذ الكثير من المسلمين في الشرق يتعاملون مع هذه الكتب بحذر، فإن الاستشراق ما زال يصوب سهامه إلينا، وما زلنا بحاجة إلى مزيد من الجهود، لرد كيد المستشرقين إلى نحورهم.

معاول هدم:

وها هي ذي معاول الهدم، تريبنا في الاستشراق والمستشرقين، وتدفعنا إلى أن نتوجس خيفة منهم ومن دراساتهم المغرضة:

أولاً: استمرار بقاء كثير من المؤسسات التبشيرية الاستعمارية بين ظهرانينا، ولا ريب في أن كثيراً من المستشرقين يتعاونون على تحقيق أهداف هذه المؤسسات، لأن الاستشراق ارتبط منذ نشأته بالتبشير والاستعمار، فالجامعة الأمريكية ـ على سبيل المثال ـ لا تزال موجودة في كل من القاهرة وبيروت واستانبول، وبناء على ذلك يجب ألا نتوقع من هؤلاء في الوقت الحاضر الإنصاف

Scanned with CamScanner

والموضوعية، وألا نضفي على كتاباتهم الصفة العلمية الأكاديمية، باستثناء طائفة قليلة منهم!

ثانياً: عدم قيام الدليل على أن الاستشراق انفصل عن الطريق السياسي الاستعماري في تاريخنا المعاصر، فالمستشرقون في كل البلاد الاستعمارية يتبعون وزارة الخارجية، مما يدل على أن مهمتهم سياسية وليست علمية، «فأنتوني إيدن» رئيس وزراء بريطانيا السابق لم يكن يتخذ قراراً سياسياً يتصل بالشرق الأوسط إلا بعد الرجوع إلى المستشرقين، أمثال «مرجيليوث»، كما أن المستشرقين اليهود لا يزالون يعملون على تحقيق أهداف الصهيونية العالمية!

ثالثاً: استمرار ابتعاث الدول الإسلامية لبنيها إلى الغرب للحصول على درجات علمية في مجال التربية وعلم النفس والدراسات الفكرية، بل الإسلامية!

رابعاً: امتلاء كثير من كتب المستشرقين التي بين أيدينا بالمغالطات والتحريف والالتواء، وهي ـ كسابقتها ـ تحتاج إلى بذل جهود مشتركة من علماء المسلمين، كل في تخصصه، لتوضيح معوجها أمام القارىء المسلم وغير المسلم، وحتى تلك التي يكتبونها لمواطنيهم تحتاج إلى تجلية، كي لا يفهم الإسلام فهما خاطئاً!.

خامساً: لا يزال بعض تلاميذ المستشرقون، والضالعين معهم من نصارى العرب، يثيرون النزعات الشعوبية بين المسلمين بقصد تفتيت وحدتهم، مثل: «الفرعونية» في مصر «والبربرية» في شمال أفريقيا «والكردية» في كل من العراق وإيران!.

سادساً: اعتراف كثير من المستشرقين المعاصرين ـ صدقاً أو تمويهاً ـ بأن التعصب الديني لا يزال باقياً في كتابات عدد منهم، يقول برنارد لويس: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة وراء الحواشي المرصوصة في كتابات البعض الآخر منهم «كما يقول نورمان دانيل: «على رغم المحاولات التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين عن الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجردوا منها تجرداً تاماً كما يتوهمون»[1].

(١) انظر: التبشير والاستعمار: ٤٥ وما بعدها.

Scanned with CamScanner